مقهى غايّان

إرنست شتروهال

تقع قرية معلولة على بعد ٦٠ كم من دمشق في اتجاه حلب، وتبدو كأنها نحتت في معركة مع جبال القلمون على الحدود اللبنانية. يزين شجر اللوز والكرز مدخل مغارة دير القديسة تكلا المشهور. الجو هادئ. التقينا في طريقنا إلى الدير (والذي يمر بدرجات عالية غير متساوية) براو فقد يده يغطي رأسه بمنديل حريري مُشجّر بلون المندرين (اليوسفي)، وهو الراوي الأخير الذي يتلو قصصه باللغة الآرامية، لغة السيد المسيح. قد يكتفي معظم السياح بسماع روايات الراوي الموسيقية وزيارة الدير والمرور بالمغارة، أما من يجرؤ على التوغل في الصحراء فسوف يكافأ برحلة من الماضي إلى الحاضر، وسوف يفاجأ خلالها بمقبرة سيارات خلف أحد منحدرات الجبل التي لا يصلها بالعالم الخارجي إلا طريق حجري. وتختلف هذه المقبرة عن مقابرنا في أوروبا حيث عادة ما نجد السيارات مصفوفة على هيئة كوم يشهد على سرعان زوال التقدم التقني. أما في معلولة فيمكن القول بأن السيارات (ومعظمها ناقلات صغيرة) قد تم دفنها بنوع من الحب، اذ تم تغطية نصفها الأسفل بالتراب، كأن غرفة القيادة تركت مرتفعة عن الأرض لتتنفس ويتمتع الجميع بألوانها وكتاباتها وحكمها التي لا يعرف الأوروبيون قراءتها. وعرفنا أن أول من استخدم مدفنة (مقابر) السيارات هم البدو الذين لا تفوق نسبتهم اليوم ١٪ من مواطني سورية، وقد استبدلوا الجمل والحمار بالسيارة منذ زمن طويل. ورغم استعمالها كبديل للخيمة المصنوعة من شعر الغنم، ورغم أن طابور السيارات قد حل محل القوافل فإن علاقة البدو بممتلكاتهم لم تتغير في حيويتها : فقد سخروا الأشياء لخدمتهم، وكان لها وجودها ومكانها الخاص مما يعني أن لها روح وأنها ليست مجرد نفايات بعد عطلها.

سرعان ما انتشرت عادة جنازة ودفن السيارة بين جميع فئات الشعب السوري وطوائفه الدينية، فتأتي العائلات لتودع أغلى ما كانت تملك راقصة ومغنية وتستعيد ذكرياتها مع السيارة قبل أن يتم دفنها.

كان ستيغ راضياً عما كتب، فقرأه مرتين بصوت عال لا يخلو من التأثر، وقد غمره إحساس بالراحة والرضا كعادته. لم يشعر بأي رغبة في تسلق جبل غورنارغرات الآن، لأنه كان يعلم بما ينتظره من فوضى قمم الجبل وشقوقه، من هاماته ومنحدراته التي كان يتفاداها طوال السنوات الماضية. كان بإمكانه تخيل جبل الماتاهورن دون أن يصعده (الجبل العظيم ذو المنحدر الشمالي الظليل، الذي تكوّن من قشرة أرضية أفريقية صلبة)، أضف إلى ذلك أن الوقت كان ضيقاً. ثم سحب ستيغ بعضاً من شعر أنفه، وأمسك بنهايتي شاله المرخي حول رقبته والذي لايزال يحمل رائحة حب الهان وأخذ يراقب ذوبان الثلج المدبب المنحني من البيت المقابل.

في الواقع لم يكن ستيغ قد نزل من الباص السياحي في معلولة، أما قصة مقبرة السيارات فهي من رواية ليلى، حكتها له في مقهى غايّان مقابل المدخل الشرقي للمسجد الكبير في الليلة قبل الأخيرة من عودته إلى زيرمات في سويسرا. كانت ليلى هدية من السماء، فقد وجدت له الراوي الذي يقص حكاياته بالآرامية وأحضرته إلى مقهى غايّان ليسمع ستيغ وقع اللغة الأصلية ولو لمرة. علقت ليلى ضاحكة : إنه حكواتي ممتاز، أما ستيغ فكان منبهراً بصوت الرجل إلى درجة أنه نسي أن للكلمات والمفردات (كونها تعبيراً عن حقيقة واحدة) معنى

منفرد أو أكثر من معنى. يبدو أن القصة التي رواها كانت مضحكة لأن الجميع أخذ يضحك ويربت على كتفه، ثم أوضحت ليلى له أن عليه مجازاة الراوي ببقشيش محترم.

كان ستيغ قد تأخر كثيراً، فقد أمضى معظم وقته في دمشق في غرفته في المعهد محاولاً كتابة مقال حول متحف الطبيعة في سان بيترسبورغ. والغريب أنه لم يكن قد زار متحف سان بيترسبورغ أصلاً، لأنه كان مشغولاً بإكمال مقال "ظاهرية التردد"، واتضح له أنه لن يتفرغ قبل عودته إلى مالمو لكتابة مقاله حول علاقة نيتشه بالحجر الذي كان قد وعد به مؤسسة سويدش سوشيال تيكست (النص الاجتماعي السويدي).

كان ستيغ يفضل الكتابة للمجلات التي توزع في نهاية الأسبوع والتي تعتبر نفسها ذات مستوى ثقافي عال، وذلك لأن عائد ستيغ من النشر لديها يفوق عائده من نشر مقالاته لدى المجلات العلمية مجتمعة.

كان يحب السفر والأجازات القصيرة واعتاد على إقناع إدارة المدرسة بلباقة وثقة، فلم يكن أحد يمانع فعلياً لأنه كان مزعجاً في نظر الجميع منذ نقل أستاذه وحاميه تسيتشيكوف إلى برلين. لم ينقص ذلك من شعبية محاضراته رغم افتقادها للمحتوى العلمي البحت. فمرة يصرح : " علم الآثار عبارة عن تدمير"، ومرة "الوصف هو شك وتردد". أما جملته المفضلة فكانت : "أرأيتم؟ إن الحقيقة تتلاشى!"، وكان طلابه يتلقون تصريحاته القصيرة بهز الرأس تأييداً ثم يدونوها دون أن يفهموا منها شيئا.

كان من سابع المستحيلات أن يفوته دق الطلاب على طاولاتهم شكراً وتقديراً له بعد محاضرته الأسبوعية، وكان قد اعتاد على استرجاع أجمل لحظاتها قبل النوم.

لم يكن ستيغ في نظر نفسه من الباحثين المولعين بالعلم المجرد، فكان يفضل بضع ساعات في مشاهدة التلفزيون على قضاء يومه في الأرشيف أو المعمل حيث يمنع من التدخين.

وكان حريصاً على قدر من التحفظ تجاه الفنانين رغم احترامه لمرافعاتهم دفاعاً عن أمور الحياة البسيطة والخاصة.

لم يكن ستيغ مخلصاً في حبه إلا لسيارته موديل ساب ٩٠٠٠. كان شراء السيارة مثل تأسيس عائلة، يترتب عليه مصاريف مستمرة ومسؤوليات وكان من الواضح أن السيارة قد امتلكته وليس العكس. فسرعان ما ضاقت إمكانياته المادية بسبب حياة البذخ الجديدة، فلم يعد معاشه البسيط يكفي، وقرر أن يوسع دخله الإضافي لأنه كان مغلوباً على أمره، مأسوراً بحبه الجم لسيارته.

فأخذ يقيس مقالاته و يعد سطورها ليضرب عددها في سعر السطر قبل انتهائه من كتابتها حالماً بقطع غيار جديدة لسياراته.

كان ستيغ رجلاً "عليه العين" كما قد يقال بالعامية، في منتصف عمره، لا رفيع ولا بدين، لا يُشتكى منه طول ولا قصر.

لو لم يكن يفضل ارتداء الجينس والبُلوفر ولو تخيلناه يرتدي سترة أوروربية تقليدية طويلة وطاقية، ولو كان يستعمل الغليون الشركسي ذو الرقبة الطويلة بدلاً من سجائر اللف، لبدا لنا كأحد إقطاعيي الريف الروسي (أو لشابه ستيغ إقطاعيي الريف الروسي كما عهدناهم في أفلام السينما).

لم يكن أحد يحيط بشخصية ستيغ الحقيقية. على كل حال، كان ستيغ قد وصل إلى شهرة لا بأس بها لدى المحررين، فكانوا يعتمدون عليه رغم سمعته السيئة.

وكان ستيغ موضع سخريتهم رغم شعبية مقالاته لدى الجمهور، وكان يسلمها جاهزة للنشر في الميعاد المتفق عليه، موفراً بذلك عليهم الجهد الذي تعودوا بذله لدى الكتّاب الآخرين. زادت هذه الطباع من الطلب على مقالاته وجعلها مرغوبة كحشو تافه لصفحات دعايات السماد والعطور وأثاث الحدائق. لقد خطر لستيغ أن ينشر مقالاته المجمعة على هيئة كتاب تحت عنوان "باقات من الغربة".

لم تكن قدرة ستيغ على المراقبة قوية، بل كانت موضع السخرية، وكان واعيا لضعفه هذا. كان يشاهد قطرات الماء تتساقط من الثلج المدبب المنحدر من مجرى تجمع مياه المطر على سطح البيت المقابل، ولكن هل كان بوسعه أن يجد لها وصفاً آخر غير أن شكلها مثل القطرات؟ إنها قطرات ماء ولا وصف آخر لها لديه، لا الآن ولا بعد ساعات من التفكير. ولم تكن علاقة ستيغ بالأصوات والألوان أفضل.

بدت له رحلته إلى دمشق متعبة واتضح له ذلك من أول نزهة في المدينة، وهو الآن يتذكر: "إنها غلطتي المعتادة، حبي للتفقد". لقد حاول عبثاً أن يتغلب على ضعفه لكنه فقد الأمل مع أول مسيرة، حيث حاول وصف لون بئر حديقة المتحف القومي السوري. كان لون البئر أحمر فاتحاً، لكنه كان أغمق من لون بلاط الحديقة الباهت والمائل إلى اللون الزهري. كان متأكداً أن لونها ليس برتقالياً أو بمبي أو أرميدي. ربما لون المندرين (اليوسفي)؟ ولكن هل لون المندرين أحمر؟ واجه ستيغ نفس المشكلة لدى محاولته وصف القط الضخم الذي يميل لونه إلى رمادي الحمام، والذي كان يقوم بدوريته الليلية على حافة شرفة سطح المعهد ليفضح زيارات ستيغ المتأخرة لدى متحف سان بيترسبورغ. كان ينقصه نصف أذن حسبما تذكر ستيغ، ولكن ليس نصف الأذن بالضبط، بل ربما ثلثها فقط، وقد ترك فقدانها صدوعاً غير معتدلة، وقد تكون حافة الأذن المقطوعة معلقة بها، لم يكن متأكداً. بدا ستيغ ضائعاً بين محاولات استعادة ذكرياته، فلم يتذكر شيئاً أو ربما كانت مشكلته أنه تذكر أكثر من اللازم فصعب عليه اختيار تفاصيل الذكرى الصحيحة من بين احتمالاته المؤلفة المختلفة.

عاد سريعاً للتفكير في القط المشرّد بدلاً من القطط الدمشقية التي ربما تكون قد أمضت حياتها على أسطح البيوت فلم تلمس الأرض يوماً، وتغذت مدى حياتها على الطيور الموسمية الآتية من الشمال، وفقط بأن تلقي بنظراتها منذ أجيال من على الأسطح إلى الأسفل حيث تعتبر شوارع البلدة القديمة الخطرة نوعاً من العالم الأسفل. فبهتت صورة القط الدقيقة ثم اختفت في ذاكرة ستيغ تماماً، بينما غرق هو في خياله عن الحياة الاجتماعية الخاصة لقطط أسطح البيوت الدمشقية. وسرعان ما طغت الفوضى على صور مخيلته وذاكرته وانتاب ستيغ الشك الرهيب في أن يكون قد رأى قطاً واحداً في دمشق وفي أن يكون في دمشق قطط أو طيور موسمية أو أسطح مستوية أصلاً، وخشي ستيغ أن يكون شاهدهم في سوق مراكش أو حتى على بطاقة تذكارية اشتراها في أحد حوانيت مطار الدار البيضاء.

مر ستيغ بفترة حاول فيها تدوين ما يراقب لكنه سرعان ما عدل عن هذه الفكرة، لأنه كان يقضي بعض الأيام في كتابة صفحات عديدة بلا جملة وحيدة مفيدة، أو يعجز عن كتابة كلمة واحدة. بناءً عليه قرر ستيغ أن يأخذ بنصيحة تشيتشيكوف بالاستغناء عن ملاحظاته قدر الإمكان، أو حتى كلياً إن أمكن. فكان نجاحه الباهر أفضل برهان على صحة قراره.

لولا أن الحظ أتاح له فرصة التعرف على ليلى لكان ستيغ ركز على موضوع القطط بلا جدوى، ولبقي في غرفته دون رؤية شيء في دمشق. لكنه لحسن الحظ ذهب إلى مقهى غايان في ذلك المساء لينسى أفكاره المشتتة سانداً رأسه على حائط المقهى المبلط. وسرعان ما شاركته ليلى طاولته مع أحد أقاربها الذي بدا لستيغ غريب الأطوار، ثم تبادل مع ليلى بعض الكلمات والمعلومات حول أماكن وأشخاص يعرفها الإثنان. أدركت ليلى على الفور مهمة ستيغ في البحث عن قصة تعجب الجمهور، كان يبحث عما وصفه بـ"تجاعيد الآخر" و"تحول الشرق وفنائه"، عن الشرق الذي سرعان ما كان يتسلل هارباً من الأبصار في لحظة، عائداً إليها في صورة جديدة في اللحظة التالية. كان ستيغ يبحث عن "صدى الماضي في الحياة اليومية" بعيداً عن السياسة التي كان يحتقرها. ثم ختم شرحه قائلاً: "إن الحقيقة فانية". أما ليلى فهزت رأسها مؤيدة وغمزت له بذكاء من خلف نظاراتها الجالسة على أنفها الكبير.

لم تفرط ليلى في الكلام عن نفسها، فلم تحكِ له سوى عن أحد محاضراتها الجامعية لدى الشرقاوي (ولم يعرف ستيغ

شيئاً عن نوع المحاضرة مثلما اعتاد على ألا يفهم شيئاً أصلاً)، كما علم منها أن عائلتها لم تكن من النوع المتدين. كان والدها يعمل كاستشاري في بيروت، ولا يستبعد أن يلتقي المرء إنساناً مثل ليلى في باريس أو لندن، رغم تأكيدها أنها لم تزر سوى المغرب، وأضافت أن هدفها هو إحياء علم الحشرات وتحديثه (هز ستيغ رأسه دون فهم ما تقول). أخذ ستيغ يتساءل في طريق العودة عن معنى اسمها : هل فكر والداها في أغنية "ليلى" الإنكليزية لإريك كليبتون حين أسمياها؟ حاول ستيغ عبثاً تذكر كلمات الفقرة المتكررة في الأغنية.

اعتاد ستيغ على لقاء ليلى وأختها الصامتة في المقهى حيث كانوا يقضون ساعتين لينتقلوا مع معارفهم إلى مطعم عربي ذي فناء داخلي جميل. تفاوضت ليلى مع مديري المطعم فحصل ستيغ على سعر مخفض كلما زاره، ثم قضت أسبوعين تدعمه بالمعلومات المدهشة وبالكتب النادرة ومحتويات أرشيفات يصعب الحصول عليها (للأسف كان معظمها باللغة القبطية أو الدرزية)، كما أخذت تترجم له مقالات الجرائد العربية وعرفته على عدد هائل من الأقارب والأصدقاء الذين لم يبخلوا عليه بالمعلومات أيضاً.

لم تعد قصصهم تعد ولا تحصر، فنسي ستيغ ترتيبها الصحيح، لكنه لم ينس أهم ثلاث قصص : أولاً : قصة سكان الأنقاض الرومانية في بصرى، والذين اضطروا لترك مساكنهم خلال موسم السياحة (فلم تكتب الصحف عن هذا الموضوع، فعرضت عليه ليلى صورة عن المساكن المصنوعة من نفايات المجتمع بعد أن هجرها أهلها). ثانياً : قصة الرياضيات اللواتي منعن من تدريبات السباحة دون حجاب في السلمية. ثالثاً : قصة مدرسة الدراويش التي تقع بين تدمر وحلب في الصحراء، والتي كثرت زيارات السياح لها في السنوات الأخيرة، والذين يعرضون أنفسهم للخطر طيشاً بمحاولتهم تقليد دوران الدراويش شبه اللانهائي.

وفي أحد لقاءاتهما لم ترو ليلى لستيغ إلا قصة واحدة عن سبب الثقوب في السقف المعدني الضخم الذي يغطي جزءاً من السوق الغربية. كان يبدو كبساط نجوم كلما تسرب ضوء النهار من ثقوبه. شرحت له ليلى أن بعض الناس يظنون بأنها نجمت عن تآكل المعدن أو أنها أثر إطلاق نار، لكنها حسبما قالت ليلى خُرقت في ربيع ١٩٤٦ بعد الثورة من قبل جنود الانتداب الفرنسي لإضاءة ممر السوق المعتم خلال دورياتهم، ثم أضاف بعض الحرفيين السوريين ثقوباً جديدة في السر ليعبروا عن مقاومتهم للفرنسيين. مر ستيغ في الأيام التالية مراراً تحت سقف السوق، وأشارت ليلى في كل مرة إلى أماكن الثقوب التي توحي إلى أشكال الكواكب حتى وجدها ستيغ رغم صعوبة فهمه.

لقد نجحت حكايات ليلى في تحرير ذاكرة ستيغ من تخيلاته الخاطئة عما رأى بالفعل، فأخذت ذاكرته تمتص القصص بلا مشكلة، وأكد ذلك على ما قرأ لأحد المشككين الألمان متعجباً بأن القصص عبارة عن تعويض عن فقدان معنى الحياة. وتعجب ستيغ أكثر عندما شرحت له أمريكية ليبرالية أنه شخصياً ليس إلا مجموعة القصص التي اخترعها عن نفسه، فلم تخلو مشاعره من الرهبة من فكرة أن تكون على حق.

لكنه كان في كامل وعيه عندما قدمت له ليلى عالم المياه الذي أخبره بالألمانية عن الصعوبات التي صاحبت تغيير شذا عن كلمة لماذا في الألمانية فظل صامتاً حتى ودعه يوسف مفسحاً المكان للقصة التالية، كأن ليلى قد لاحظت عجزه اللغوي وأرادت إنهاء البحث اليائس، فحولت انتباه ستيغ إلى السؤال عن سبب اختفاء الشحاذين المكفوفين الذين كانوا جزءاً من ملامح دمشق القديمة، فاستغرب ستيغ لأنه لم ير بالفعل واحداً منهم حتى الآن. أخبرته ليلى بأن اتفاقاً مجهولاً لدى العامة قد تم بين رئيس حزب البعث والمفتي ينص على جمع الشحاذين من شوارع دمشق لإعادة نشرهم في الريف السوري حيث يعملون كمؤذنين ليغطوا نقص الريف لهذه الوظيفة. أما المكفوفين ذوي الأصوات الضعيفة، فتم توظيفهم في تعديل أجهزة استقبال القمر الصناعي التي وجدت إقبالاً شديداً في الوقت الأخير لأن حاسة السمع قوية جداً لديهم.

كانت فرحة ستيغ عظيمة بباب الفرج الذي فتح أمامه، لكنها كانت الوجه الآخر لفكرة فقدان رزقه الجديد التي كانت تطارده ليلاً كما الحال مع أي تاجر ناجح، فكان ستيغ يخاف ألا تعود ليلى في إحدى المرات. لم يكن يعرف عنها شيئاً سوى أنها تسكن مع أهلها بعيداً عن مركز المدينة في بيت لم يتم تشطيبه وأنها كانت تعمل ليلاً كممرضة من أجل تمويل دراستها في جامعة (قد نسي ستيغ إسمها). تعوّد على أن تتركه ليلى في منتصف الليل لتذهب إلى العمل، حتى أنه كان يقاطعها في بعض الأحيان ليذكرها بميعاد عملها. لم يكن محقاً في خوفه من اختفاء ليلى لأنها كانت حريصة على أن تحضر في الميعاد أو حتى تنتظره في المقهى في بعض الأحيان لتستقبله بأخبار وقصص جديدة وتفاجأه بأدلة على القصص التي روتها من قبل. فيتصفحها ستيغ متعمقاً في الصور والإحصاءات بمساعدة شروحات ليلى المدعمة.

كان البعض يتجمع حولهما فضولاً، ومنهم من كان ينفجر ضحكاً، لكن نظرات ستيغ الصارمة كانت تعيدهم إلى أماكنهم ليركز كل فيما يعنيه.

لقد كثرت الحكايات التي جمعها ستيغ خلال أسبوعين حتى صعب عليه اختيار قصة مقبرة السيارات في معلولة. لم يعد ستيغ يفهم غرض ليلى من تبنيها له. ربما كانت محاولة منها للهرب من عالم الشباب السوري المحبط إلى عالم ستيغ الذي كانت تظنه دنيا الحرية وعدم التكلف، والذي لم يكن في نظر ستيغ حتى داع للأمل والبهجة (باستثناء سيارة ساب وفرقة مالمو لكرة القدم في بعض أيام لعبها المفرح). ربما كان لجمله الساحرة التي تدرب عليها في مالمو والتي كان يغزلها بلباقة في محادثاته الدمشقية وقع كبير لديها (وكان ستيغ يرجح هذا السبب). وإلا فكيف عرف بوجود صديق أحد أقارب ليلى الذي كان يُدعى سليم؟ زارهما سليم لمدة بضع دقائق في المقهى ليعرض على ستيغ يده المشوهة بناء على طلب ليلى. فقد سليم إصبعين في رهان على لعبة طاولة في يبرود قبل دخوله الجيش بليلة حيث كان يحلم بأن يصبح طياراً حربياً. شرحت ليلى لستيغ أنها من العادات البدائية التي أحضرها الصليبيون إلى سورية في القرن ١٢ وأضافت أن جميع محاولات منع اللعبة قد فشلت. كان ستيغ سعيداً بما جمع فأخذ يتخيل المبلغ الذي سوف يكسبه من وراء نشر هذه القصص قبل أن يخلد للنوم.

وفي مرة زار مع ليلى مسرح "لا باروديك" لفرقة "أبو قير" المسرحية والتي كانت تتدرب للعرض على أحد مسارح القاهرة. كان العرض عبارة عن لعبة ظل تنفذ بمساعدة لعب تكبر حجم الإنسان تربط بين عناصر تقاليد المقام العربي وعناصر الفن المسرحي الأوروبي الحديث. وللأسف وصل ستيغ مع ليلى لدى انتهاء البروفه لكنهما لقيا ترحيباً حاراً من الجميع، وفوجئ ستيغ بوجود يوسف وسليم وأخت ليلى وقريبها وعالم المياه الغريب الذين تعرف عليهم في المقهى، كما فوجئ بكونهم ممثلين. دعا ستيغ الجميع إلى العشاء لأن مزاجه كان رائقاً ولأن حالته المادية بدت له جيدة الآن، وعرف منهم هناك أن المسرح يمر بأيام عسيرة بسبب مراقبة الحكومة ونقدهم للعادات والتقاليد ولطريقة كتابة التاريخ المعهودة. وبالمقابل حكى لهم ستيغ عن المسرح الذي يقام في الأماكن العامة في هولندا والسويد، مما أثار انتباه ودهشة الجميع. ثم ختمت الفرقة ليلتها السامرة بتعليم ستيغ بعض أسطر أغنية ابن حزم، فقضوا أمسية رائعة حتى أُغلق المطعم واضطر نادرين إلى مساعدة ستيغ في الذهاب إلى البوابة.

قضى ستيغ أجمل أمسية مع ليلى يوم وداعه، ففاجأته ليلى خلال نزهتهما في حي باب توما ببعض تفاصيل حياتها بعد أن حافظت على غموضها طوال الوقت الماضي. فحكت له عن جدها البدوي الذي اعتاد على قضاء معظم أشهر السنة في الخيمة والذي أصبح وجوده مجرد ذكرى لأوقات مضت. كما باحت له ليلى بأن خالها كان عازفا موسيقيا كبيراً، صاحب كوكب الشرق أم كلثوم على العود ثم فشل في إحدى التسجيلات. وحكت ليلى عن طفولتها في حمص التي قضتها بين المطبخ والحديقة وعن والدها الذي ترك عائلته ليعيش مع روسية. ثم أخبرته ليلى بما كانت تصنع بين العمل ومحاضراتها وزياراتها في المقهى حيث كانت تعمل لصالح

جمعية تحاول نشر وبيع المنتجات الحرفية التقليدية عبر شبكة الإنترنت، فأضافت شارحة : " إنها الوسيلة الوحيدة لتفادي أجور التجار والوسطاء الذين يستغلون الحرفيين والطريقة الوحيدة ليحصل الحرفي على أجره المستحق"، فاقترح ستيغ عليها أن يزورا مقر عملها، فرفضت معللة بأنه لن يرى إلا حاسوباً مغلقاً ومنتجات فاخرة لا يستطيع شراؤها، ثم وافقت بعد إصرار ستيغ ولكونهم قريبين من مقر الجمعية.

كان بيت العطار معبأً برائحة حب الهان (لم يكن ستيغ واثقاً من ذلك، ربما كانت رائحة كمون أو قرنفل أو كزبرة. لم يكن واثقاً إلا من كون الجو معبأً بذلك العطر الشرقي). لم يبدو أبو قير منبهراً عندما رأى الاثنين لكنه في نفس الوقت لم يبدو مفاجأ بزيارتهما.

بحث ستيغ عن الحاسوب جاهداً فلم يجد سوى تلاً من القماش صُف في منتصف الغرفة. شكى له أبو قير أنهم لا يبيعون شيئاً هنا، ثم أضاف شارحاً : أن الجمعية تمر بصعوبات بالغة في دخولها القرن الواحد والعشرين، فقد نجح طالبان في تطوير برنامج خاص للجمعية غير أن انقطاع الكهرباء يعرقل تنفيذ المشروع بشدة.

ثم بدأ أبو قير في عرض قطع القماش على ستيغ قطعة قطعة راوياً له قصة كل منها وأصلها، فتلك القطعة من إربد وأخرى من الحسكة وثالثة من صنع جاره، ولم يدرك ستيغ الفرق بين هذه الأقمشة والمنتجات التي تعرض عليه في السوق، فشرحوا له أنها من الحرير الصافي المشجر المنسوج يدوياً وأن بعض رسوماتها نفذت يدوياً حسب التقاليد العريقة التي تنقلها الأم إلى ابنتها الكبرى ومن جيل إلى جيل دون أن يمسها الزمن بشيء.

خطفت ليلى آخر قطعة قماش فورما بدت لها ملقاة على الأرض، ثم وضعتها إلى جانبها بحذر، ولاحظ ستيغ أن نظرات العطار لها كانت غاضبة، كأن ظهور هذه القطعة بالذات لم يرق له أبداً. أما ليلى فبدت منبهرة بالقطعة عاجزة عن التعبير عن فرحها، فكرر ستيغ سؤاله ملحاً حتى ردت عليه بأن القطعة من أوغاريت محل ميلاد أول أبجدية في العالم، وبأن القماش كاريت ممتاز لا يسمح بتصديره عادة، وبأنه أرقى من أن يكون هدية تذكار لسائح يجهل قيمتها الحقيقية. ثم أضافت : ألم يصفه خيرة شعرائكم في سرير الموت بطيب المعدن وساحر الجمال.

وأخيراً اتضح حتى لستيغ أن هناك فرقاً شاسعاً بالفعل، فهذا القماش نسج بخيط رفيع ويد خفيفة ودقيقة وهو أقيم من بقية القطع كلها. برقت ألوان القماش في الضوء الساطع، وانساب بين يدي ستيغ مثل الرمل الناعم عندما يتسرب بين أصابع حامله. ثم عجز ستيغ عن اللفظ بكلمة واحدة حين سمع سعر القطعة وشرح التاجر أنه غير قابل للنقاش.

المراجع :

– نيكولاي غوغول : "الأرواح الميتة"، ترجمه من الروسية إلى الالمانية ف. أوتوف. نشرت الترجمة في ميونيخ عام ١٩٩٢.

– فلاديمير نابوكوف : "الأخوات فانه" و"الروايات المجمعة ٢"، نشرت في ١٩٣٥–١٩٥٢. ترجمها إلى الألمانية ر. غيرنهارد، ي. نويبيرغر، د. إ. تسيمر. نشرت الترجمة في فرانكفورت عام ١٩٩٤، ص ٥٣١–٥٥٥.

– مقال سيقيرين روتغيرس بعنوان "تاريخ الأنطولوجيات"، نشرت في "أجمل حكايات ألف ليلة وليلة" في فرانكفورت ولايبتسيغ، ١٩٩١، ص ٦٨٤–٦٨٧.

– شارل شيفار (ناشر) : مجلة ذكريات أنطوان غالّان خلال إقامته في القسطنطينية. نشرت في باريس، ١٨٨١.